

تقديم

بعد رحلة زمنية ، طولها اثنا عشر قرنا هجريا ، في صحبة مباركة مع العشرات من العلماء والأئمة والمفكرين والمصلحين والحكام ... وغيرهم ، من أعظم من أنجبتهم الحضارة العربية الإسلامية ، ممن يشكلون : (أعلام المجددين في الإسلام) ، والذين غطت أعمالهم واجتهاداتهم وتجديداتهم في الفكر الإسلامى الجزئين : الأول والثاني من هذه الموسوعة ، لتكون معا على أبواب المجلد الثالث ، وما يتضمنه من مجدي الإسلام في القرون الهجرية : الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر .. بعد هذه الرحلة المباركة ، يبقى هناك سؤال يطرح نفسه وهو : ماذا استفاد الإسلام من التجديد الذي قام به هؤلاء المجددون في الإسلام ؟ أو بمعنى آخر: ماذا تستفيد الحياة المعاصرة مما قدمه مجددو القرون الخمسة عشر الهجرية للإسلام ولأبنائه ؟

هذا السؤال المطروح ، سواء بمعناه الأول أو بمعناه الثاني ، توقف أمامه عدد من المفكرين والمؤرخين ، وربما تتوقف أنت عزيزي القارئ أمامه بعد قراءتك لتجديد واجتهاد وعمل مواقف هؤلاء المجددين ، طوال هذه القرون الإسلامية الماضية، وهو نفس الأمر الذي ساورني أثناء قراءتي لهذه الأعداد الضخمة من الكتب التى اهتمت بموضوع التجديد في الإسلام . وقد سبقنى - كما قلت - مؤرخون ومفكرون أجلاء ، منهم أحد مجدي الفكر الإسلامى في العصر الحديث : الراحل «أمين الخولي» فيما كتب عن التجديد ورجاله في الأربعة قرون الهجرية الأولى ، فقال: «عقدت هذا الفصل - أي : الفصل الذي كتبه - لأجمع فيه متفرق المعالم والمنارات الإسلامية التطورية ، فأزيد الوعي لها والانتباه إليها ، وأرجو قرب الاستفادة منها ،

وخاصة حين أضُم إلى جميع متفرقها تنسيق متشابهها ، والمشارك فيها ، وذلك إذ أشير إلى ما تفيد الجوانب المختلفة من حياة اليوم ، بهذه القدوات الكريمة » .

وهكذا .. رأى الأستاذ أمين الخولي ، أن ما يفيد الحياة المعاصرة في جوانب منها: الجوانب الدينية ، والأخرى الخلقية ، والثالثة العلمية ، والرابعة هي التي تنفع الحياة العملية الاجتماعية .

ففى الجوانب الدينية : قدم المجددون ظاهرة التسامح الدينى الرحب الأفق ، المسلم المتواد البار .. الذي يمثله هؤلاء المجددون ، وعلى وجه خاص ما قدمه المجدد : أبو الحسن الأشعري حين شهد على نفسه في مواجهة غيره ، أو تسامح الخليفة عمر بن عبد العزيز حين كان يناقش معارضيه ومخالفيه ، على الرغم من خروجهم على الدولة .

هذا التسامح من هؤلاء المجددين بجوه الرحب ، وقلبه السليم .. خير ما تستفيد منه الحياة المعاصرة من عمل يقرب بين المسلمين على اختلاف فئاتهم وفرقهم ، وذلك تمكينا لهم في مواجهة ما حولهم من تحديات .

ومع التسامح ، قدم المجددون للحياة الدينية حرية الاعتقاد ، وحق الفهم الصحيح للدين ، وهو ما صنعه المجدد «عمر بن عبد العزيز» حين اعترف وأقر لمخالفيه السياسيين الخارجين على أسرته ودولتهم بحرية العقيدة ، ويضمن ذلك لهم ، بل ويدعوهم لمناقشته في جو من التسامح .

كذلك .. مما قدمه المجددون للحياة الدينية من فهم الدين على حقيقته التى هى إصلاح الحياة ودفع لها في طريق الخير .. ذلك الفهم الحيوي الذي يدفع عن الدين شر الادعاءات والافتراءات والأباطيل الناتجة عن الذين لم يحسنوا فهم الإسلام ؛ فمالوا به وجنحوا إلى ما هو بعيد عن روحه العملية والحيوية الحقيقية .

وقدم المجددون للحياة الخلقية المعاصرة الكثير من المعاني في كيفية التعامل بسلامة صدر ، ونقاء روح ، مما يلتبس منه الخلق السمح الطيب الذي يعف عن

الخصومة ، ويتسم بالمعاملة الطيبة ، ويتنزه عن الأحقاد . ومثال ذلك : ما رأيناه في سلوكيات بعض المجددين في معاملتهم لمخالفهم ؛ حيث قدموا أسمى وأرقى وأرفع ما في الحياة الخلقية من قيم ومبادئ وقدوات .

وقدم المجددون للحياة العلمية والتعليمية مبادئ وقيما وأسساً ، منها : سعة الأفق في تمثل دائرة المعارف البشرية ، ومنها : إجلال العلم وتقديمه على كل شيء ، وذلك لفهمهم لأهميته ؛ حيث إنه وسيلة الدنيا ووسيلة الآخرة على ما يقررون ، ومنها أيضاً : تصحيح مناهج التفكير العلمي الذي لا يتقدم العلم إلا به ، ثم منها : النفور والتنفير من التقليد الأعمى للآخرين ؛ حيث ينبغي أن يكون التفكير نابعا من عقل وقلب الإنسان المسلم .

كذلك .. قدم المجددون للحياة العملية نماذج عظيمة من سلامة العلاقة بين الدين والحياة العملية : سلامة صحية واضحة كل الوضوح ، فلا يخجلنا أي شعور بانفصام الحياة الدينية عن الحياة العملية التي يحياها الفرد ويتعامل معها .. فمثلا : كان الإمام الشافعي - أحد أئمة مذاهب الإسلام الأربعة ، على اعتبار أنه رأس المذهب الشافعي ، وأحد المجددين في الإسلام - يشجع على الرماية كرياضة موجودة في الحياة ، بل ويدفع للمتفوق فيها من ماله الخاص . فيكون هذا الاهتمام من الشافعي رضي الله عنه خير توجيه من أصحاب العلم الديني ، وذلك حين يسهمون في تنشيط الحياة العملية بالفعل والمشاركة ، وليس بالقول أو التنبيه .

وقدم المجددون للحياة الفنية والأدبية الكثير ، فنرى من سلوكياتهم .. وهم أمثلة ونماذج ، وقدوة في الصلاح والتقوى .. من رقة النفس ، ورفاهة الشعور ما لا يكاد نجده عند كبار الأدباء والفنانين في أحدث العصور . وها هو عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه كان يضطرب اضطرابا واضحا عند سماع صوت جميل ، ويبكي من ذلك حتى تبل دموعه لحيته ، ولا يلوم أحدا من قضاته وعماله على إسرافه المنفعل في الموسيقى والغناء .

وبهذا التفتح ، وتلك الاستنارة بالنسبة للفن : موسيقى وغناء ، نجد ما يماثله أيضا في الأدب: شعره ونثره، بل إن بعضهم كان من أصحاب الطاقات الشعرية العظيمة مثل الشافعي رضي الله عنه ، فإلى جانب محبته لسماع الشعر وطربه للجيد منه ، فقد كان هو نفسه شاعرا، صاحب ديوان في الشعر، حتى لقب بالإمام الشاعر. وهذا هو «عمر بن الفارض» : سلطان العاشقين ، له من الشعر ما استقر على مر السنين والعصور، وهذا هو «ابن عطاء الله السكندري» له في النثر البليغ ما يطاول وينازع الشعر في الروعة والجمال ، وذلك فيما أورده من حكمه المشهورة .

وهكذا .. يضع هؤلاء المجددون مثل غيرهم من العلماء والأدباء والمفكرين الأساس السليم والصحيح لمثل هذه المنازع الإنسانية ، البعيدة عن الانحراف والخطأ ، ويجعلون من أنفسهم - وهم الهداة في الدين - هداة للشباب ، فيقولون لهم القول المتفهم لواقع الحياة ، القادر على حسن التوجيه توجيهها يقبلونه منهم ، حيث لا يترتمتون ولا يحاربون الفطرة التي فطر الله عليها الإنسان .

بل إن ما قدمه بعض المجددين في الأدب والفن ومكانتهما في الحياة ، « ما يرأب هذا التصدع الذي تتعرض له الحياة المعاصرة » على حد تعبير الأستاذ «أمين الخولي» - وهذا التعبير حق ؛ إذ إنه حين تجتهد الدولة في إيجاد ألوان من النشاطات الأدبية والفنية يقرر أصحاب القول الديني حرمة هذه النشاطات ، فيضيع الشباب بين هذين الاتجاهين المتقابلين ، ويتجهون إلى ما يجبون في غير اتزان ولا تماسك .. ياليت أصحاب القول الديني يرجعون في هذا الصدد - إلى بعض المجددين في الإسلام المشهود لهم بالتقوى والصلاح ، يرجعون إلى خامس الخلفاء الراشدين عمر ابن عبد العزيز ، أو الإمام الشاعر الشافعي ، أو الصوفي الحكيم ابن عطاء الله السكندري ليروا منهم يسرا يفتقدونه في أقوالهم .

وغير ذلك من أوجه وجوانب الإصلاح الواعي المفيد يستطيع تجديد الفكر الإسلامي تقديمها لحياتنا المعاصرة ، ولهذا ولغيره من أسباب لم يقتصر التجديد في الإسلام على علماء الدين من فقهاء وأئمة وشيوخ فحسب ، بل شمل أيضا علماء في

الحياة بمعناها الرحب المتسع ؛ فكانوا إلى جانب علماء الدين علماء في التاريخ والجغرافيا والطب والفلك والاجتماع والفلسفة والاقتصاد والسياسة والأدب واللغة .. وغيرها من العلوم التي من مجموعها تكونت منظومة الحضارة الإسلامية على أيدي هؤلاء المجددين من أبناء الإسلام . فاعتبر الحاكم المسلم الذي يحدث نهضة وتقدما وتطورا يؤدي إلى الرخاء في بلده من المجددين ، كما رأينا في الجزئين : الأول والثاني من هذه الموسوعة ، وهو ما يظهر بصورة واضحة في هذا الجزء الثالث الذي بين أيدينا . ذلك لأن التجديد في التفكير الديني ينبغي أن يتماشى مع طبيعة الحياة ، الدائمة التغير بكل ما فيها من أنشطة ، ولا بد أن تواكب حركة التجديد حركة الحياة في سعيها المستمر ومسيرتها الواثقة .

والسؤال الآن، يدور حول ما يتضمنه الجزء الثالث من ملامح وإشارات. إن نظرة واحدة إلى هذا الجزء الذي بين أيدينا والذي يشتمل على ثلاثة قرون هجرية هي: الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، تكفي وتزيد للدلالة على أن هناك هجمة كانت على الإسلام من أعداء الإسلام ، سواء المستعمرين أو المبشرين أو المستشرقين ، أو حتى السياسيين وفي مقدمتهم الرئيس الأمريكي السابق بوش كما ذكرنا بدليل زيادة عدد المجددين، خاصة في القرن الرابع عشر الهجري لمواجهة هذه الهجمة المستمرة حتى كتابة هذه السطور - شوال 1429 هجرية في شهر أكتوبر 2008 ميلادية ، - هجمة يتعرض لها هذا الدين ، وفي المقابل : نجد هذا الدين قادرا على مواجهة كل التحديات ، وذلك بتفكير أبنائه من المجددين منذ ظهر هذا الدين إلى اليوم .

إن أول ما يستوقفنا في هذا الجزء من الموسوعة ظهور عدد من المصلحين ، يتقدمهم : «جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي» ، وسبق هؤلاء المصلحين رجال فكروا في بعث اليقظة في الأقطار الإسلامية والعربية بعد طول سبات في عصور التخلف والانحطاط . رجال هذه اليقظة يتقدمهم : «الشوكاني والزبيدي، وبعد ذلك الطهطاوي» : رائد النهضة الثقافية ، كذلك يستوقفنا حكام أحدثوا نهضة في بلدانهم، يتقدمهم : «محمد علي» رائد النهضة الحديثة

في مصر، والملك «عبد العزيز آل سعود» صاحب النهضة الحديثة في شبه الجزيرة العربية، والذي أنشأ المملكة العربية السعودية المنتسبة إلى اسمه، تأكيداً لما صنعه من ازدهار وتقدم في بلده، كذلك يستوقفنا ظهور عدد من المجددين في شبه الجزيرة الهندية، ممن حافظوا بجهودهم على ثوابت الإسلام واستمراريتها، ويتقدمهم «مولانا أبو الكلام آزاد والشاعر محمد إقبال وأبو الأعلى المودودي وأبو الحسن الندوي ووحيد الدين خان»، وظهور طائفة من المجددين غير الأزهريين في مصر والبلاد العربية ممن أخذوا على عاتقهم مهمة إعادة كتابة التاريخ الإسلامي بصورة يفهمها أبناء الإسلام، وفي الوقت نفسه تدافع عن الإسلام مما أحدثته كتابات غير المسلمين من افتراءات وأباطيل، ويتقدمهم: «طه حسين وأحمد أمين وعبد الحميد العبادي»، وواكبهم في ذلك «العقاد والدكتور هيكمل وأمين الخولي وكرد علي»، وغير هؤلاء من الرواد، تبعهم في ذلك أجيال يمثلها «مالك بن نبي والشرقاوي وخالد محمد خالد والسحار»... وغيرهم ممن قدموا صورة حقيقية للإسلام.

كذلك ظهرت طائفة من علماء الأزهر المستنيرين من تلاميذ الإمام محمد عبده، ويتقدمهم: الأئمة الثلاثة: «مصطفى المراغي ومصطفى عبد الرازق ومحمود شلتوت».. وغيرهم من الأزهريين الذين عملوا من أجل إصلاح الأزهر. كذلك ظهرت طائفة من الدعاة الذين قربوا الإسلام بتعاليمه إلى الناس، ويتقدمهم: «الباقوري والغزالي والشعراوي والقرضاوي».

وغير ذلك من جوانب تضمنها هذا الجزء الذي بين أيدينا؛ ليتم بذلك تغطية القرون الهجرية الخمسة عشر قدر الاستطاعة والإمكان.

والله يوفقنا إلى ما فيه الخير.

سامح كريم

القاهرة الجديدة - أكتوبر 2008